مرايا الخلود

سيرة رجل مضى بلا التفات

الشهيد بإذن الله

عبد السلام الشافعي

جهاد الصدّيق





مؤسسة النازعات
Anaziat

شعبان
١٤٤٦هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

معراج الخلود: سيرة رجل مضى بلا التفات

الشهيد عبد السلام الشافعي

وثّق أغلبها رفيقه الشهيد عبد الرحمن الشرقي

جهاد الصدّيق

النازعات

شعبان ١٤٤٦هـ

«إنها طريق واحدة، وقصة متكررة متجددة، لكنها لا تُملّ، وهذا من العجائب. إنها قصة خاتمتها تلك الصرخة المدوية الندية: «فزت بها ورب الكعبة». نهاية سعيدة لصاحبها مع ما فيها من ألم لناظرها وسامعها، لكنه ألم مؤقت طبيعي، وحين يخلط بالأمل والرجاء المنبعث من آثار الشهداء لا يلبث أن ينقلب رحيقًا وشهدًا... ومبارَكةُ الله تعالى على أشلاء وأوصال ودماء الشهيد، معنى لطيف من المعاني التي يدركها أهل الإسلام والإيمان، لتنوُّر قلوبهم بمعرفة الله تعالى ودينه، وتخفى على المنافقين والكفرة وأهل الفجور، لظلمة قلوبهم وتغطيتها بالران من معاصي الله، بل تغلّفها بها!

من البركات أن يُسلم أناس، ويتوب أناس، ويظهر رجال، وينشأ جيل على حب الجهاد والشهادة والرجولة والبطولة والعزة والكرامة، وأن ينتشر المنهج ويعلو ويظهر، وتلين قلوب، وتزول عقبات.

وبالجملة؛ **فإنّ الشهادة شيء عجيب، يصعبُ على الإنسان أن يُوفّيَها حقها بالكلام**».

عطية الله، الأعمال الكاملة؛ لقاء الحسبة (١/١١١-١١٣)، بتصرف.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

«إني يا عبد الرحمن، رأيت منامًا في ليلة قريبة مضت، أني وبعض الإخوة كنا في اشتباك شرس مع العدو، وكان معنا رسول الله ﷺ، وكانت الطائرات الجاسوسية تحومُ فوق رؤوسنا، لها أزيز رهيب، وكانت تقترب حتى يخيّل لأحدنا أنها ستقطف رؤوسنا اللحظة، فانتشرنا تحت الأشجار ذات اليمين وذات الشمال، ومِلتُ أنا ورسول الله إلى جهة تحت ظلّ شجرة، وحدنا، وبقينا هناك زمنًا حتى يهدأ الوضع، وحانت الصلاة، فصليت مع النبي مأمومًا، فلمّا قضينا الصلاة التفت إليّ وناولني رسالة خطية، لمّا فتحتها وجدت فيها: «أنتَ من أهل الجنة». ثم صحوت تختلط مشاعري بين المسرّة الشديدة والحزن.

سألته متعجبًا: «الفرح أفهمه، ولكن لم الحزن؟ وقد رأيت رسول الله وبُشّرت بالجنة!».

قال: «كنتُ معه، وبجانبه، ولم يكلمني ويخبرني أني من أهل الجنة، بل أعطاني مكتوبًا، فلعله زعلان عليّ!».

هذا كان عبد السلام الذي عرفته، والذي أدركت حين اقتربت منه أنني أمام شخصيّة فريدة، نسيج وحده، يعزّ على الزمان أن يجود بمثله!

كان إنسانًا نبيلًا في إنسانيته، ومجاهدًا مخلصًا منضبطًا في جنديته ثم قيادته لاحقًا.

ولد **مُحَّد بن عبد الكريم الخان**، والذي عرف بيننا لاحقًا عند قدومه الساحة **بعبد السلام الشافعي**، في البحرين، تحديدًا في جزيرة المحرّق، وفيها ترعرع ونشأ، في كنف أسرة شريفة تنحدر من نسل الحسن بن علي رضي الله عنهما، وكانت كأغلب العائلات البحرينية تحتفظ بالأواصر الحميمة والترابط الدافئ بين أفرادها.

ومنذ بدأت تتشكل ملامح شخصية مُحَّد مبكرًا، كان يظهر جليًّا اتقاد ذهنه، وحيويته، وتطلعه للمعرفة والتعلم، وكانت علاماته الدراسية لا تخيب هذا الظن، أمضى المراحل الدراسية حتى الثانوية في مدرسة الهداية في مدينته، ثم انتقل إلى جامعة البحرين ليكمل مسيرته التعليميّة.

صادف مطالع أيامه في الجامعة تعثرٌ مادي عائلي أوجب عليه الموازنة بين العمل والدراسة، وفي تلك الأثناء كان وهج أخبار الحرب الدائرة في أفغانستان بين المجاهدين والأميركان ساخنًا، وكانت تهيج صدور الشباب المشغول بقضايا أمته، ولم تكن فكرة النفير إلى تلك البلاد والالتحاق بالركب بعيدة عنه، بل كانت تلحّ عليه يومًا بعد يوم، وتحرك مُحَّد مرارًا للسؤال والاستفسار بين الدوائر الخاصة الموثوقة عن سبيل للذهاب، ولكنّ الجواب المخيّب الذي كان يتلقاه على الدوام: «ليس هناك طريق متاح في الوقت الحالي».

ثم فكّت الأزمة المادية خناقها، وأعقب العسر يسر، فكان أول ما سعى فيه

والده إرساله إلى الهند في بعثة لإكمال دراسته هناك.

في ذلك البلد البعيد اتخذت حياة مُحَمَّد مسارًا جديدًا، درس الهندسة، وتزوج من زميلة له، وكانت فترة استقرار هادئة نسبيًّا، حتى تواصل معه فجأة أحد المنسقين وأبلغه أنّ طريقًا إلى أفغانستان قد صار ممهدًا، فإن شاء فليستعجل، وإلا فالله يعلم ما تجري به المقادير في قادم الأيام.

كانت هذه لحظة امتحان حقيقية للشاب الذي انتظمت حياته، والذي قد غدا له منزل وزوجة وفترة جامعية أنهى جزءًا جيدًا منها، ووظيفة رفيعة بعد التخرج، وعالَم مرسوم بريشة الوداعة والراحة، وآخر.. آخر محفوف بتدمير كلّ ذلك، وباستقبال الخطر بذراعين مشرعتين، وبالتعب، والشدائد، والخوف، والغربة.. والجنة!

فاختار الجنة.

في أواسط عام ٢٠٠٦م وطئ مُحَمَّد أرض خراسان، واتخذ له اسمًا جديدًا، عبد السلام الشافعي، وبدأ يتلمّس ملامح الحياة الجديدة، والمجتمع الذي لطالما تمنى أن يكون جزءًا منه، وسرعان ما صار واحدًا منهم، يعيش حياتهم الكاملة مغتبطًا بها، وبما أنعم الله عليه من بركة المكان وحسن الصحبة، وكان لعبد السلام معزّة خاصة ووداد يجري سلسًا في أفئدة إخوانه، أكسبها طبعٌ وخلق رقيقين، وبشاشة طلعة، وتواضع جمّ، وروح شفافة لا تستبقي الكدر.

وبعد استقراره، جدد عبد السلام تواصله بزوجه التي تركها في الهند، على اتفاق أن يرتب مجيئها إليه فور أن يطمئن لمناسبة الحال والمكان: «ألن تلحقي بي؟»

ولكنها أبت: «ألا تعود يا مُحَمَّد؟ لبيتنا، الذي لم يغادره الدفء بعد، إلى مقعدك الجامعي الذي لا يزال ينتظرك، إلى حياتنا الهادئة التي لم يعكّرها شيء سوى رحيلك المفاجئ هذا، هل كان من المفترض أن يحدث ما حدث!».

صمتَ طويلًا.. إذن فهو الفراق..

التحق عبد السلام بالدورات العسكرية التأسيسية، والتي أبدى فيها براعة وحرصًا شديدين، وإتقانًا للمواد، وعند انتهائه أوصى مدربوه بنقله مع الثلة المتميزة لتحصيل الدورات التخصصية، وقد كان، فدرس استخدام المتفجرات وتصنيعها على يد الشيخ **أبي خباب المصري**، وكان من أنجب طلبته وأضبطهم سلوكًا، وأكثرهم عناية وحذرًا ونظامًا في التعامل مع هذا التخصص الحساس، ثم انتقل بتوصية أخرى خاصة من الشيخ إلى دورة متقدمة في مجاله من حيث الاستخدام والتصنيع، وبتخرّجه منها صار عنصرًا ثقيلًا في الكادر العسكري للمجاهدين، وتأهل ليصبح مدربًا لكتيبة العمليات الخارجية الخاصة، تحت قيادة الشيخ **أبي عبيدة المصري**، والذي نشأت بينهما علاقة وطيدة، تجاوزت ما بين المعلم والتلميذ، إلى علاقة أب وابنه، وكانت لعبد السلام أمنية، ما ملَّ

من تكرارها على مسامع أستاذه، رغم الرفض المتكرر الذي كان يجيبه به: «أريد القيام بعملية استشهادية في الخارج، إني أتحرق لذلك يا شيخ! وإنه ليعتصر قلبي في كل مرة أرانا ننسق ونجهّز فيها العمليات ثم يكون النصيب فيها لأحد غيري».

لكنّ الشيخ أراد استبقاءه، فكان يؤجل أمنيته، ويواسيه بالكلمات حتى ينشغل عن هذا الإلحاح.

ثم دهم الشيخ أبا عبيدة مرض مفاجئ، تفاقم في تسارع مقلق، وقبل أن يستوعب الإخوة مرحلته وخطورته كانت المنية قد زارت الشيخ، فانتقل إلى جوار ربه، مؤديًا أمانته، ومسلّمًا الراية لمن بعده، وكان قد ترك في وصيته ذكرًا خاصًّا لعبد السلام، وتوصية للقادة بالعناية به والانتفاع بالخير الكثير الذي عنده. وكان موت الشيخ قد حفر آثارًا بالغة في نفس عبد السلام، والذي تجددت في نفسه مشاعر فقد الوالدين والبعد عنهما، كان كثير الحنين إليهما، خاصة والدته، والتي كانت بينهما رابطة فريدة.

لقيني مرة جذلًا، وحدثني عن استقباله رسالة إلكترونية من والدته في البحرين، تقول له فيها: «أكثر ما يثلج صدري هو تحقيقك لِما تمنيته لك منذ صغرك».

يحدثني عن ذكرياته مع والدته، يسرح نظره بعيدًا كأنه يستحضر تلك

الأوقات الوديعة، يبتسم للذكرى: «كان من عادات والدتي أنه حين يأتي موعد النوم، تأتي لي بالحكايات، وتجلس على طرف سريري، تقرأ عليّ سير الجهاد والغزوات، تغريني بها، وتشوقني لها، كانت تذكر الشهادةَ، كأنها المكافأة الكبرى في الحكاية! والجهادَ، كأنه السعي الأوحد في هذه الدنيا، وأنا في الفراش، كنت أتخيل تلك الملاحم وهي تسردها علي، أسمع الصهيل، وقرع السيوف، والتكبير، أرى عَدْوَ الخيل، وسقوط أجساد الشهداء، ورفرفة الرايات، كان عالَم بأكمله يتجسد في غرفتي في تلك اللحظات، ثم تحدّثني: يا صغيري، أتدري لم خلقنا الله في هذه الدنيا؟ للعبادة. صحيح، فما هديتنا إن نحن أنجزنا المطلوب منا؟ الجنة. وفي الجنة كل ما نشتهي يا حبيبي، هل فيها حلويات وآيسكريم؟ تضحك لي: أجل».

كان الشيخ أبو عبيدة قد سلّم عبد السلام قبيل وفاته مسؤولية تدريب المجموعات المجهزة للعمل في الخارج، جنبًا إلى جنب مع الأستاذ رشيد رؤوف، وقد نقلت هذه التجربة خبراته وكفاءته إلى مستوى أرفع، وفي المقعد الخالي الذي تركه الشيخ أبو عبيدة عيّن الشيخ **صالح الصومالي**، فكان خير خلف لخير سلف، وكان من القرارات التي اتخذها: منح مسؤولية مركز المتفجرات والتصنيع لعبد السلام، وكان هذا من أشد القطاعات حساسية ودقة، وكان اختيار الرجل الخاطئ هنا يكلف العمل الجهاديّ أثمانًا باهظة، ولكن يبدو أنّ

الشيخ صالح قد وفق في اختيار القوي الأمين، صاحب السر، الذي لا يفلت منه جزءٌ من معلومة، عن طريق العمد أو الخطأ، للمقرب أو البعيد، وكانت هذه الخصال الحاسمة مما أثمر ازدهارًا في القسم، وكان مما سعى فيه عبد السلام في هذه الفترة تطوير المواد وأخلاط المستعملة في العمليات الخاصة ومحاولة ابتكار مواد وأخلاط جديدة لا تستطيع أجهزة العدو الحديثة والمتطورة اكتشافها.

في تلك الأثناء ازداد شعور عبد السلام بالحاجة للاستقرار، وقد فكر في الزواج، ولمّا أردنا أن نسعى له في الأمر أفصح لنا عن رغبته في الزواج بأرملة ذات أيتام، كان مستشعرًا لحديث النبي ﷺ في كافل اليتيم، وأراد أن يكون له عملٌ يضمن له مرافقة النبي في الجنة، كانت تدهشني هذه التفاصيل التي يفكر فيها ويتمسّك بها، وكانت في ذاتها تشي بالعلاقة الخاصة التي كانت بينه وبين الله.

تزوج عبد السلام بالفعل أرملة ذات أيتام، وكنت أتردد على منزله كثيرًا، فكنت أرى منه صبرًا عجيبًا وسعة صدر في تربية الأولاد، وكان شديد اللطف والحنان معهم، حدّ أنهم لم يكونوا ينادونه سوى «أبي»، فكان في أبوّته حقيقيًّا إلى حدٍّ نسي الأطفال معه أنه عم وزوج أم، وأذكر أني قلت له معجبًا ذات مرة: «ما شاء الله عليك، هؤلاء الأولاد، تعاملهم كأبنائك الحقيقيين». فردّ

عليّ: «لست أعاملهم كأبنائي، بل هم أبنائي بالفعل، ووالله! لو أنّ أنسًا كان بينهم هنا ما كنت رأيتني أفرق بينه وبينهم في حركة ولا سكنة ولا قول ولا فعل».

«ألك ابن لا أعرفه؟».

«بل أرجو أن يكون..».

قبل استشهاده بعشرة أيام زرته قبل سفر لي خارج المدينة، فلقيني مستبشرًا كعادته، غير أني لمست منه حرارة زائدة لم أعهدها، كان قلقًا عليّ إثر سماعه بقصفٍ نزلَ على المنطقة التي أسكنها، وكنت أضاحكه حين أستذكر الأحداث الخطيرة العديدة التي خرجنا منها سالمين برحمة الله وحفظه، وفي تلك الجلسة أسرّ لي: «أظن أني سأقتل قريبًا»، فأجبته مازحًا: «أمضيتَ هنا قرابة الخمس سنوات وفي كل مرة ترتفع فيها معنويّاتك تكرر ذات الجملة».

قال لي: «هذه المرة الأمر مختلف»، قلتُ مستغربًا أضمر قلقي: «كيف مختلف؟».

قال: «رأيت رؤيا عجيبة، رأيت جنديًّا ضخمًا يحاول ذبح كبش مسجّى على لوحٍ خشبي أملس جميل، وكان الجندي يمضي السكين في عنق الكبش، والكبش يرفس، والدم لا يخرج منه، ولا يموت!

وبينما أنا كذلك، أرقب المشهد إذ بي ألتفت فأرى رسول الله ﷺ، يبتسم

إليّ ويقول: «أنتَ معي في الجنة، أنتَ معي في الجنة»، فهويت ساجدًا إلى الأرض، وانتهت الرؤيا».

يقول: «وقع في نفسي أنّ هذا الجندي هو الجندي الأميركي، وأنّ الكبش يرمز للمجاهدين، وأنّ لوح الخشب الأملس هو خراسان.

فاضطربت نفسي قلقًا وخوفًا عليه، وجهدت في إخفاء ذلك، قلتُ مصطنعًا الدعابة: «دعك من هذه التخرصات! لعلك تعيش حتى تقاتل مع المهدي المنتظر»، فتبسّم لي وقال: «سترى..».

وحين ودّعته مغادرًا ضمني إليه ضمة شديدة، كأنها ضمة مودّع، وتوادعنا على أمل لقاء قريب.

لم يفارقني القلق من حديث عبد السلام الأخير طوال سفري الذي استغرق عشرين يومًا، وكانت وجهتي الأولى حين عدتُ بيتَ صفيّي ورفيقي. وصلت إليه على عجل، أحمل إرهاقي ومتاعب سفري التي لا يهوّنها غير التنعم برؤيا الأحبة، طرقت الباب، فخرج لي الجسد الصغير لربيبه، سألته: «أين أبوك؟» أجابني: «أبي قُتل».

تشوّش ذهني، نهرتُ الولد مبديًا له شيئًا من الغضب: «اذهب وقل لأبيك أن يأتيني بسرعة».

لكنه ظلّ مكانه: «لكنّ أبي حقًّا قُتل، قبل أيام، قصفته الطائرة

الجاسوسية..».

تركت الصبيّ وهرعت إلى بيت جاره، كان في قلبي صخب واضطراب شديدين، كأنّ طبول الحرب تقرع في جوفي، طرقت الباب، ليكن الصبي يعبث، يا رب..

وعندما ظهر الوجه الجامد للجار من خلف الباب سألته: «أحقًّا؟».

أطلّ في وجهي صامتًا لوهلة، خلت الزمن انحبس فيها دقائق طويلة، ثم أجابني: «أجل.. تفضل بالدخول».

حكى لي الجار عن يوم الأحد الفائت، الموافق ٢٣/١/٢٠١١م، بعد صلاة الفجر عندما سُمع دويّ قصف قريب بعثَ القلق في نفوسهم، أراد عبد السلام أن يتأكد من أثر القصف، وهل استهدف أحدًا أَم أنه أخطأ هدفه، قيل له «اصبر يأتيك الخبر»، ومرت ساعات عديدة لها صمتٌ مقلق، ولم يأتِ الخبر، بعد الظهيرة قرر عبد السلام أن يعاين المكان.. السكون يملأ المنطقة مذ وقت القصف الأول، لكنه لم يكن يملك مركوبًا ينطلق به، سأل في الأنحاء عن شخصٍ يمكن أن يقلّه، كان يقطن في الجوار شاب من البشتون، يدعى **كاشف**، من أهل المنطقة البسطاء، ولم تجمعه من قبل علاقة بالمجاهدين أو عملٌ معهم، لكنه ما إن سمع أنّ مجاهدًا يحتاج مساعدته حتى انتفض من سريره فرحًا، ركب دراجته النارية واتجه إلى منزل عبد السلام، أقلّه خلف ظهره

وانطلقوا ناحية القصف الذي سُمع فجرًا، وبعد دقائق معدودة اهتزت الأرض لوقع خمس صواريخ متتابعة، كانت قد فتكت بالرجلين، بل بالمنطقة المحيطة بهما..

الحمد لله على كل حال، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون..

عندما انتهى من حديثه كنت مصابًا بالدوار، وكاد سيل من الدمع يغرق وجهي لولا رؤيتي للصغار قادمين نحوي، ينادون في سرور بريء: «عمو عمو!».

تمالكت نفسي، منحتهم الحلوى، قبّلت رؤوسهم، سألت أكبرهم إن كان ينقصهم شيء، ثم ودّعتهم وسرت بعيدًا، أفكر..

بغضب.. في الخسة المعتادة لهذا العدو الجبان، الذي يَضعف في المواجهة المباشرة، فيتخذ الطرق الملتوية للنيل من خصومه، خمس صواريخ! على رجلين أعزلين.. يا أعداء الله! إيهٍ يا طيّب الذكر، إلى أي حدّ أوجعتهم حتى جاء صراخهم عاليًا إلى هذه الدرجة!

وبأسى.. مَن فُجع بحبيبه، وتُرك وحيدًا، يعالج الشوق والفقد والذكرى..

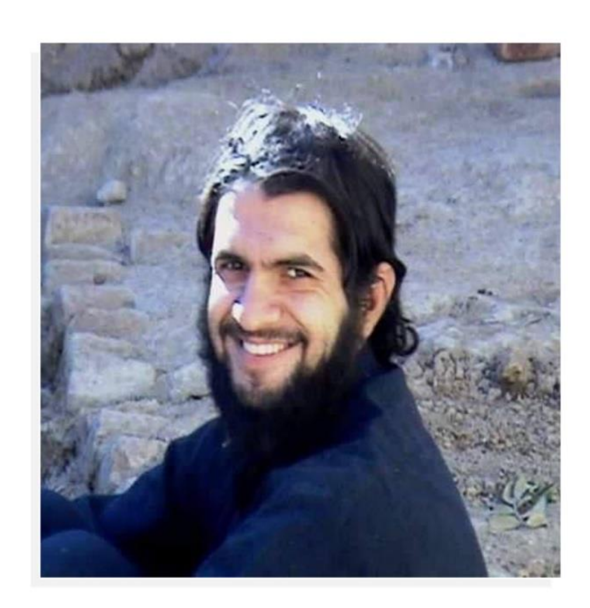
وبغبطة.. لتحقيقك مناك يا خِلّي، لعلك الآن تسرح في جنات ربك، راضيًا مرضيًّا، برفقة النبي ﷺ، قدِمت على ربك مهاجرًا مجاهدًا مرابطًا كما نحسبك والله حسيبك!

عظّم الله أجرنا فيك، إنّ العين لتدمع، وإنّ القلب ليحزن، وإنّا على فراقك يا عبدَ السلام لمحزونون، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

بعد مضيّ شهور ثلاث، أنجبت زوج عبد السلام صبيًّا، سمّوه **أنسًا**، كما كان يرجو والده، وكبر أنسٌ، ولم يرَ والده أبدًا، ولم يره والده، فقد طالته الأيدي الأميركية الآثمة بينما كان في انتظاره، هذا الكيان الذي لا ينتهي شرهه الدموي عند حد، والذي يقتات على الأرواح البريئة، ليسير عجلة الإهلاك والدمار، للحياة كلها، لأرض كاملة، لشعب بأسره، لأنه فقط يقول ربيَ الله، والذي لا يتصدى لإيقاف امتداده العاتي غير أمثال عبد السلام، تلك الثلّة الشجاعة، المختارة للفداء، والسائرة على خطى الهدي المحمّدي، حتى تنقذ الدنيا من مأساتها، أو تعتذر لنفسها أمام الله حين تلقاه.

لأجل أنس، وأمثالُ أنس كثير، نكتب، وندوّن هذه السير، لنحفظ تاريخنا الذي بُذلت النفائس لتشويهه، ولطيّه في غيابات النسيان، لكننا نُصرّ على حراسته، ونقله لجيل بعد جيل، ليعرف هؤلاء الفتيان آباءهم، وإن حُرموا لقاءهم، وليدركوا جليل التضحيات التي سبقت، وأنّ أهلها حملوا الراية بحقّها، حتى الرمق الأخير، وسيجيء وقت يكون على اللاحق استلامها، وإكمال المسير.








شہید محمد عبد الکریم الغان
شہید سید کاشف جواد
تاریخ شہادت 23-1-2011
میلہا

